مجلة رؤى تاريخية للأبحاث والدراسات المتوسطية
ISSN8131-2716

المجلد الأول، العدد الأول، جوان

ذاكرة وادي المخازن 1578م بين المصادر المحلية والأجنبية

Memory of Wadi Al-Makhazin 1578 between the local and foreign sources

د. زين العابدين زريوح

[1] جامعة ابن طفيل/المغرب، zinelabidine83@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/02/04 تاريخ القبول: 2020/05/11 تاريخ النشر: 2020/06/28

الملخص:

يتحدث البحث عن ذاكرة معركة وادي المخازن التي وقعت بين المغرب والبرتغال على مقربة من مدينة القصر الكبير المغربية سنة 1578م، وانتهت بانتصار الدولة السعدية وحلفائها من الزوايا والعثمانيين في مواجهة البرتغاليين الذين انهزموا رغم حصولهم على دعم البابا وعدد من البلدان الأوربية، في مقدمتها إسبانيا. غير أن الانتصار المغربي في هذه المعركة والهزيمة التي ألحقها بالجانب البرتغالي خلفت مجموعة من الارتدادات التي خلقت تصورات متعددة في ذاكرة الأطراف المتحاربة لمدة من الزمن، غير أن الوثائق والمصادر التاريخية المغربية والأجنبية(الأوربية والعثمانية) تقدم صورة عن هذه الذاكرة، إلى جانب إتاحتها معلومات تمكن من الكشف عن جوانب خفية من هذه المعركة وحقيقتها رغم عدم حيادية بعضها.

الكلمات المفتاحية: وادي المخازن، الذاكرة، المغرب، الدولة السعدية، البرتغال، الدولة العثمانية

Abstract:

The research talks about the memory of "Battle of Wadi Al-Makhazin", which took place between Morocco and Portugal near the Moroccan city of Ksar El-Kébir in 1578, which ended with the victory of the Saadian dynasty and its allies from the Zawiyas and Ottomans in the face of the Portuguese who were defeated despite having received the support of the Pope and a number of European countries, especially Spain. the Moroccan victory in this battle and the defeat it inflicted on the Portuguese side, left a group of rebounds that created multiple perceptions in the memory of the warring parties for a period of time, but the Moroccan and foreign historical documents and sources (Europeans and Ottomans) provides a copy of this memory, in addition to making the informations that enables to reveal hidden aspects of this battle and its reality despite the partiality of some of them.

Keywords: Wadi Al-Makhazin - Memory - Morocco - Saadian dynasty - Portugal - Ottoman Empire

مقدمة:

تحتل معركة وادي المخازن لسنة 1578م –التي جرت أطوارها قرب مدينة القصر الكبير المغربية ما بين المغرب والبرتغال وحلفائهما– مكانة بارزة في الذاكرة المحلية والإقليمية، سواء لدى المغاربة أو لدى الجانبين الإيبيري والعثماني، وذلك بفعل أثرها البالغ الذي بصم تاريخ ومجتمعات المنطقة خلال بدايات الفترة الحديثة، نظرا لأهمية هذه الواقعة التي تركت مجموعة من الترسبات العسكرية والسياسية والذهنية التي ظلت تجلياتها حاضرها لقرون موالية. غير أن تضارب الذاكرات والروايات ما بين مختلف هذه الأطراف حول هذا الحدث، سيجعل لما تحمله الوثائق من معطيات دورا مهما في وضع تصور أكاديمي، يمكن من خلاله خلق مقاربة رصينة للذاكرة التاريخية حول هذه المعركة.

إذا فإشكالية البحث تتمحور حول رصد أوجه الذاكرة المتضاربة لوقعة وداي المخازن ما بين المغاربة والبرتغاليين وغيرهم من الأطراف الذين شاركوا في هذه المعركة، وتحديد موقف كتاب المصادر المحلية والأجنبية، كل حسب خلفيته وهويته ومكانته العلمية والاجتماعية.

فالبحث يفترض أن صراع الذاكرة وتناقضها ما بين كل هذه الأطراف أمر مفروغ منه، نظرا لاختلاف أوجه النظر ووقع الانفعالات الذهنية والنفسية ما بين المنتصر والمنهزم، وتأثير ذلك على شعوب هذه الدول التي ساهم جنودها في المعركة، وكذا الانعكاس المترسخ في أذهان المثقفين والمؤرخين والشهود والدبلوماسيين إبان هذه المعركة وبعد انتهائها، ولو بعد مرور مدة من الزمن. وذلك من خلال النصوص والوثائق والروايات التي خلفوها وراءهم.

ومنه، فإن الدراسة تهدف إلى الوقوف على مكامن الفرق في الذاكرة التاريخية ما بين الجانبين المغربي والبرتغالي، وكيفية تناول المصادر المحلية والبرتغالية، وكذا الأوربية والعثمانية، لهذه الواقعة بناء على منهجية المقارنة التاريخية، وذلك وفق مخطط عام للموضوع يضم 3 عناصر أساسية: أولا ذاكرة معركة وادي المخازن، ثانيا: معركة وادي المخازن في المصادر المحلية، ثالثا: معركة وادي المخازن في المصادر الأجنبية.

1. ذاكرة معركة وادي المخازن:

يحيل مفهوم الذاكرة على "آليات تمثل الماضي واستحضاره، ومسارات تشكل هذا التمثل من الناحية الاجتماعية والسياسية والثقافية"[1]. إلا أنه يجب التفريق ما بين الذاكرة الجمعية أو الجماعية كما تناقلتها الأجيال وفي الكتابات التاريخية التقليدية، والذاكرة الجمعية بصفتها موضوع بحث المؤرخ، فالأولى أي الذاكرة الجمعية هي تمثلات لما تبقى من الماضي في معاش الجماعة، تمتاز بالإجمالية، والتداخل، واللاحدود، وهي

أيضًا لا نقدية، ذاتية وصدامية؛ أمّا الذاكرة التاريخية فهي ثمرة تقليد معرفي وعلمي ونتاج للتحليل والنقد والعقلنة. ولا يمكن إدراك الذاكرة الجمعية في الكتابة القديمة إلا على مستوى المعالجة الإسطوغرافية، إذ من خلالها يظهر التاريخ من موقع الذاكرة الجمعية للجماعة[2].

ومنه فإن الوثيقة تحظى بأهمية بالغة في حفظ الذاكرة، ومن بين الأحداث الأكثر تأثيرا في الذاكرة المغربية: معركة وادي المخازن التي تعد نقطة مشعة داخل هذه الذاكرة، بحكم وقعها الهائل في تاريخ غرب المتوسط خلال النصف القرن الأول من العهد الحديث وامتداداته، وما تمثله من إرث للمقاومة المغربية للاحتلال الأجنبي. إلا أن هذه الصورة لاتزال غير مكتملة بحكم نقص الوثائق أو عدم التوصل إلى كل الوثائق التي سجلت للحدث، ما دامت الوثائق المحلية غير كافية أو أن تعاملها مع الأحداث كان منقوصا بسبب ظرفية الكتابة أو استحضارها بالأساس تغليب المصلحة العامة والإجماع الوطني واحترام البعد الديني، لاسيما مع سيادة مظلة الصراع الإسلامي المسيحي في البحر المتوسط خلال تلك الفترة.

وقد استهوت قضية "ذاكرة وادي المخازن" عددا من الباحثين من بينهم Lucette de Valensi التي حاولت التطرق للحدث في كتابها "**أساطير الذاكرة: المعركة المجيدة للملوك الثلاثة**" انطلاقا من إشكالية العلاقة بين التاريخ والذاكرة، وذلك على مستوى المخلفات الذهنية والرمزية والانفعالية لدى كل من المغاربة والبرتغاليين، من حيث مضمون الذكريات ووسائل إنتاجها وانتقالها في شكل نصوص وأفعال وطقوس وغيرها...[3].

وفي ظل خفوت ذاكرة الأحداث التاريخية –ومنها ذاكرة وادي المخازن– بعد زمن من وقوعها، وكذا غياب أي آثار مادية ملموسة من بقايا ساحة المعركة كالأسلحة والملابس، وعدم كفاية الرواية الشفهية المترتبة عن الحدث من قبيل ما ظل متداولا لقرون عديدة بمنطقة القصر الكبير أنه: «كان يكفي استخدام الشطاطيب لطرد البرطقيز من البلاد»[4]، كصورة تدل على هوان قدر البرتغاليين في أعين المغاربة عقب المعركة وكسر حاجز الخوف الذي كان مطبقا على أذهانهم بسبب الهجمات الإيبيرية وكذا انعكاس لمدى التفوق المغربي الباهر فيها. ورغم وجود بعض الأشعار الملحمية الحماسية التي حاولت تخليد الحدث وتجسيد أصدائه سواء من المعاصرين أو من بعدهم وصولا إلى أشعار بعض رجالات الحركة الوطنية[5]. فإن الوثيقة تبقى هي المصدر الرئيسي لحفظ ذاكرة الفترة وذاكرة هذه المعركة على وجه الخصوص، وبالتالي لا يمكن الاستغناء عنها في تصحيح وتأثيث الصورة الجماعية والرواية التاريخية معا، سواء كانت نصوصا محلية أو أجنبية، وإن اختلفت طرق تناولها للأحداث وزاوية رؤيتها لها. وهو ما يجب أخذه بالاعتبار في التعامل مع مختلف الوثائق من حيث

ظرفية وخلفية تدوينها، حتى يتسنى لنا الوصول إلى أقرب تصور لهذه الذاكرة، خصوصا وأننا نقف هنا أمام إشكالية أخرى في هذه الوثائق وهي تعارض ذاكرتين متضاربتين ذاكرة المنتصر وهو ما تمثله الوثائق المغربية وذاكرة المنهزم وهو ما تمثله الوثائق الأوربية ولا سيما البرتغالية منها، رغم الحياد الإيجابي لبعض الوثائق.

2. معركة وادي المخازن في المصادر المحلية:

فقد ركزت المصادر المغربية التي تطرقت لمعركة وادي المخازن على رواية الأحداث بطريقة أدبية وسردية بعيدة نسبيا عن الجوهر والمضمون، حيث اتسمت بالعمومية وعدم الإشارة بدقة لحيثيات الوقائع، وذلك انطلاقا من الالتزام بالإجماع الوطني والشعبي والرفع من معنويات النخبة والرعية معا وإعلاء مجد الدولة وإخفاء كل الجوانب التي يمكن أن تمس بهذه الصورة الجمعية، والحرص على التماهي مع الحماس والدفعة النفسية الكبرى التي أحدثها النصر في المعركة لدى الرأي العام الشعبي المغربي ورواية الأحداث من زاوية المنتصر، إلى جانب التطبع بتأثيرات الصراع المسيحي الإسلامي الذي كان أمرا بديهيا خلال هذه الفترة من تاريخ المتوسط بشكل عام، وكذا تجنب ذكر ما يمكن أن ينمق من صورة المنافسين والخصوم أو الأعداء النصارى مثل بعض إنجازات البرتغاليين في ساحة هذه المعركة. ومع ذلك فإنها لم تعدم ذكر عددا من المعطيات التاريخية المهمة.

وعلى رأس هذه المصادر **"مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا"** لعبد العزيز الفشتالي(ت1031هـ/1621م) مؤرخ الدولة ووزير القلم الأعلى على عهد المنصور[6]، والذي تم تأليفه بتكليف من هذا الأخير من أجل تدوين تاريخ دولته وتجاوز ما اعتبرها مغالطات تناولتها كتابات بعض علماء الشرق الإسلامي آنذاك[7]، حيث أشار بالأساس إلى عظمة وأبهة الدولة من خلال دور المنصور في إدارة البلاد وما حققته إدارته من منجزات بعيدا عن مجموعة من التفاصيل والروايات الأخرى. ومن هنا فقد ربط موقعة وادي المخازن التي أسماها ب"**يوم المخازن**"[8] بوصول المنصور إلى رأس السلطة السعدية واصفا الحدث بالفتح الذي اقترن ببيعته وعلامة على يمن حكمه وخلافته واجتماع الكلمة حوله واستقرار البلاد[9]، حيث جرى الحديث في فاتحة الكتاب عن هذا النصر في سعيه للربط ما بين لقب "المنصور" الذي اتخذه السلطان والنصر المتحقق في المعركة مضيفا له لقب آخر وهو "**المجاهد**"[10]، وقوله بظهور كرامات في يوم المعركة وحضور الملائكة لهذا الحدث العظيم[11]. بحيث جعل من هذا الإنجاز معجزة وصنيعة السلطان الذي ألقى الضوء على دوره وشجاعته ووصفه ب"**الليث العادي**"[12]، مع التركيز على ثنائية الفتح وتربع العرش مع قتل "**الطاغية**" البرتغالي و"**هلاك الملوك الثلاثة**"[13]، ما بين "**مجدل وغريق وفائض النفس**" وكذا "**ثمانين ألفا**

من المشركين ما بين قتيل وأسير" مؤكدا صدقية الرواية بعبارة "**حسبما تقرر في موضعه**"[14]، ويبالغ مرة أخرى –متماهيا مع حماسه– في عدد الأسرى بقوله "**الاستيلاء على مئين من ألوف أمم النصرانية**"[15]. كما يتطرق لتوافد الإسبان والبرتغاليين بتدلل وخنوع بين يدي المنصور من أجل الحصول على جثمان سبستيان والأسرى النبلاء مع التدقيق فيما قدموه من عظيم الهدايا ووصف الوفادة العثمانية وهداياها[16]، مسهبا في نعوت قدحية في حق البرتغاليين من قبيل "**كتائب المشركين**" و"**جموع الكفر**" و"**طواغيت الشرك**" و"**أحزاب التثليث**"[17]، مما غيب مجموعة من أحداث الواقعة مع هذا الوصف، مع العلم أنه كان فعلا بعيدا عنها وعن مشهد السلطة إلى غاية سنة 1582م حين أضحى من كتاب الدولة[18]. غير أنه يشير –فيما بين السطور– ضمن نصوص أخرى إلى المساهمة الشعبية في المعركة من خلال مشاركة قبائل الخلط الأعرابية ومنحها أراض في منطقة أزغار(الهضاب المجاورة للأطلس المتوسط) نظير تلك المشاركة[19].

وقد ذهب في نفس المنحى أيضا أحمد بن القاضي(ت1025هـ/1616م) صاحب "**المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور**"، الذي ألفه اعترافا بجميل هذا الملك على تخليصه من أسر القراصنة[20]، فأهداه إليه كما هو الأمر بالنسبة لأغلب مؤلفاته الأخرى[21]. حيث أسهب هو الآخر في تعداد أمجاد الدولة السعدية على عهد المنصور ومناقبه. وبالتالي فقد سعى هو الآخر لإعلاء علم الدولة ونسب النصر في معركة وادي المخازن لهذا السلطان[22]، ورفع من تعداد جيش النصارى إلى "**مائة ألف وخمسا وعشرين ألف، الخمس والعشرون ألفا بقيت في سفائنهم في البحر، والمائة ألف أسر جلها، وقتل سائرها**"، وحدد مدة المعركة –بناء على بعض الميقاتيين– في 45 أو 52 درجة، وهو ما يمكن أن يعادل 4 أربع إلى أربع ساعات ونصف، وزاد على ذلك في آثار ووقع المعركة على البرتغاليين والمغاربة –رغم النعوت القدحية في حق الخصوم– بأنها "**الغزوة العظيمة**" التي جاءت بالهزيمة على من أسماهم ب"**الكفرة**"[23]، وأنه "**كثيرا ما مدح الناس هذه الغزوة وشاع أمرها في أقطار البلاد، وفشا ذكرها في ألسنة العباد**"[24]، وشبهها بغزوة بدر التي حضرها "**جم غفير من أهل الله**" في مقابل البرتغاليين الذين نعتهم ب"**بني الأصفر**" و"**أهل ملة التثليث**"[25].

ويشير –هو نفسه– في كتابه "**درة الحجال في أسماء الرجال**" –والذي ينتمي لصنف التراجم– ضمن ترجمة محمد المتوكل إلى مقتل عبد الملك المعتصم مسموما على يد القائد التركي رمضان العلج الذي قدم برفقته إلى المغرب، ووصف فيها مجريات المعركة بشكل أدبي منبها مرة أخرى إلى دور المنصور في حسم نتيجتها وكيف "**قاتل قتالا عظيما، فلم يمر على النصارى إلا مقدار ثلاث ساعات إلا وهو تحت أسره،**

أبقاه الله بين قتلى وجرحى وأسارى"، ووفاة سبستيان الذي وصفه ب"**اللعين**"[26]، وفرار المتوكل وغرقه، وكذا قضية بيعة المنصور إثر وفاة الملوك الثلاثة وما يحمله ذلك من حكمة إلهية[27].

إلى جانب مصدر آخر مهم كتب بعد مدة من تاريخ المعركة وزوال الدولة السعدية ألا وهو "**نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**" لمحمد الصغير الإفراني(ت1154هـ/1741م)، والذي نقل عن سابقه روايات وتعريفات وأوصاف بذاتها حول المعركة سواء من "المنتقى" أو "درة الحجال" من قبيل أن هذه الغزوة من "الغزوات العظيمة والوقائع الشهيرة حضرها جم غفير من أولياء الله تعالى حتى أنها أشبه شيء بغزوة بدر"، وكذا أعداد الجيش المهاجم[28]. إلا أنه استرسل في كيفية خروج المتوكل واتفاقه مع الملك البرتغالي دون سبستيان DOM SEBASTIAO –الذي نعته "**بالطاغية النصراني عظيم نصارى بردقيس**"[29]، و"**الطاغية البرتغالي**" أو "**برتقيس**"– حول منحه شواطئ البلاد في مقابل الدعم العسكري[30]، واستبق ذلك بالحديث عما دار بين المتوكل ومراسلاته مع أعيان المغرب من علماء وأشراف وغيرهم لتبرير فعلته باللجوء إلى البرتغاليين بداعي عدم مشروعية نكث بيعته ومبايعة عمه عبد الملك المعتصم وجواز الاستعانة بأي وسيلة كيفما كان نوعها لاسترداد ملكه المغتصب نظرا لعدم حصوله على النصرة من المسلمين، وكذا ما احتوته رسالته من تهديد ووعيد لمن لا يستجيب له منهم، منتقدا الإفراني ضمنيا لتسمية البرتغاليين –في رسالة المتوكل– ب"**أهل العدوة**" بدل النصارى على خلاف ما هو معهود وشائع في الأدبيات المغربية حينها، إلى جانب النقل الكامل لرد هؤلاء الأعيان الذين أشاروا لدحض كل هذه المبررات وفق أسانيد فقهية ونصوص شرعية واضحة بعدم أحقيته في اللجوء إلى النصارى واستعدائهم ضد المسلمين ومبررات نقض بيعته لما ارتكبه من تجاوزات في حق الرعية[31]. إذ يحمل الإفراني المسؤولية في الآن ذاته –كما يتضح من خلال عنوان الفصل "**ذكر الخبر عن استصراخ مولانا محمد بن عبد الله بالنصارى وما حدث بسبب ذلك**"– للمتوكل الذي استجلب هذا الخطر للبلاد[32].

فيما خصص فصلا آخر للحديث عن المعركة التي وصفها ب"**غزوة وادي المخازن**" و"**النصر المبين**"[33]. هذا الفصل الذي جاء فيه –اعتمادا على أحمد بن القاضي وغيره من الكتاب السالفين عن زمنه– ببعض التفاصيل من قبيل خطط الطرفين في تدبير المواجهة، وكيف كان الاقبال الشعبي كبيرا للانضمام لجيش المعتصم حيث "**انضاف له من المتطوعة كل من رغب في الأجر وطمع في الشهادة وأقبل الناس سراعا من الآفاق وابتدروا حضور هذا المشهد الجليل**"، إلى أن انتهى المطاف بجيوشهما بالالتقاء على وادي "**لكس**" كما أسماه الإفراني(رغم أن وادي المخازن هو أحد روافده فقط)، وكيفية كتمان أمر وفاه السلطان المعتصم –

الذي توفي وفق روايته في بداية المعركة مع الصدمة الأولى- من قبل حاجبه والقائد رضوان العلج وتسيير المعركة بعدها من قبل المنصور، واستمرار "**الناس في المنضالة...فولى المشركون الأدبار ودارت عليهم دائرة البوار**" كصورة تدل على انكسار الحلم البرتغالي مع مقتل سبستيان غريقا في الوادي وتدافع النصارى للفرار عبر القنطرة المهدومة وعدم نجاة إلا القليل منهم، والعثور على محمد المتوكل غريقا إلى جانب أحد رجال بطانته وهو محمد ابن عسكر صاحب "دوحة الناشر" والذي وجد –حسب كلام الناس- "**على شماله مستدبرا القبلة...ما بين جيف النصارى**"، كمشهد يعبر عن سوء الاصطفاف والخاتمة في إطار رؤية دينية محضة حصرت فيها هذه الشخصية وكل من والى المتوكل وحلفائه البرتغاليين، علاوة على التطرق لعملية سلخ جلد المتوكل وحشوه بالتبن والطواف به في مراكش وغيرها من مناطق المغرب للعبرة[34]. والذي وسم في الذهنية الشعبية آنذاك –وإلى غاية يومنا هذا- بالخيانة، لترتبط صورته منذئذ لدى عامة الناس بلقب "**المسلوخ**"[35].

ويختم الفصل برواية "غريبة مضحكة –حسب وصفه- تنم عن الاستهزاء بهزيمة النصارى لكثرة قتلاهم في المعركة إلى حد أن "**رأى أساقفتهم قلة الروم وخلاء البلاد لكثرة من مات منهم، أباحوا للعامة فاحشة الزنا ليكثر التناسل ويخلف من هلك منهم، ورأوا ذلك من نصرة دينهم وتقويم ملتهم**" في مبالغة حول عدد قتلى النصارى إلى درجة حدوث فراغ ديمغرافي مع النكاية فيهم والاستهزاء بفتواهم الدينية، ويختم بالدعاء عليهم بقوله: "**أخزاهم الله ودمرهم وأخلى منهم الأرض**"[36].

ويسرد بعدها في فصل آخر خصصه لعبد الملك المعتصم رواية أحمد بن القاضي عن مقتل هذا السلطان مسموما على يد القائد التركي رمضان العلج بإيعاز من الأتراك الذين رغبوا في السيطرة على المغرب لولا ما ظهر لهم من قوة جيش البلاد مما أثناهم عن مخططهم[37].

ويضيف إلى ذلك أيضا معطيات أخرى كأعداد المدافع التي أشار إليها –في نقله عن بعضهم- أنها كانت مائتين من الأنفاض[38]، وذكر ساعة وتاريخ المعركة وكيف آلت إلى تتويج أحمد المنصور على رأس الحكم كإحدى أهم نتائجها وتجلياتها[39]. كما أشار إلى حضور بعض مشايخ الصوفية في المعركة وعلى رأسهم أبو المحاسن الفاسي دون التطرق إلى ذكر دوره البارز فيها وحشد الهمم لها[40]. وكذا للمشاركة الوازنة لقبائل الخلط في معركة وادي المخازن والجزاء الذي لاقته من المنصور مقابل ذلك، إذ يقول: "**فرأى –أي المنصور– مقاتلتهم يوم وادي المخازن وإبلاءهم فيه البلاء الحسن، فاختار نصفهم للجندية.. ونقلهم لأزغار فسكنوا فيه**"[41].

وحتى الكتب التي يمكن أن نصنفها ضمن الكتابات المعارضة "**تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية**" لمؤرخ مهجول، لم تخرج عن العموميات والنسق الأدبي. رغم ما يمكن أن يحسب عليه من تحامل ضد الدولة السعدية والذي يعود ربما لأسباب سياسية، على غرار ما أشار إليه الإفراني في النزهة الذي ظن بأنه: "**من وضع بعض أعدائهم لحطه من قدرهم**"، معتبرا أنه اعتمد في روايته على "**نقل من لا يوثق به**"[42]. لكن صاحب هذا المصدر المجهول يختلف عن غيره في كونه لم ينقل عمن سبقه من المؤرخين بأخذه من أفواه شخصيات عايشت الأحداث وشاركت فيها[43]، وبالتالي فإنه ينقل لنا ذاكرة اللحظة كما هي. ورغم ما اتهم به من تحامل على السعديين، فإنه لم يغفل ذكر بعض محاسنهم ولم ينكرها، ويظل مصدرا مهما ومفيدا لغناه بمادة تاريخية نادرة تستهوي كل الباحثين في هذا العصر، لأن توجه المجهول مختلف تماما عن توجه المؤرخين الكلاسيكيين، وتتقاطع رواياته مع بعض رواياته مع روايات أجنبية، كما راعى في كثير من نصوصه الأوضاع الشعبية والاجتماعية بدل الاقتصار على الجانب السياسي.

وقد أفرد هو أيضا فصلا مهما لحدث المعركة تحت عنوان: "**الخبر عن غزوة وادي المخازن وذكر سبب خروج النصارى إليه**"، والذي جاء فيه بعدة معطيات حول اتفاق المتوكل مع الملك البرتغالي التي وصفه بلفظ "**برتقيش**" وتعداد الجنود المهاجمين وعتادهم، بحيث ذكر بأنهم كانوا في نحو الستين ألفا جندي ومائتي مدفع والآلاف من العربات، زيادة على الثلاثمائة من أصحاب المتوكل المسلمين[44]، وكيف انتهى بهم المطاف بعد نزولهم من طنجة باتجاه أصيلا عند مكان الواقعة بعد مشاورات ومراسلات بين مختلف الأطراف، علاوة على حسن تخطيط عبد الملك المعتصم الذي نجح في استدراج البرتغاليين إلى الفخ بعد هدم قنطرة الوادي وما آلت إليه المعركة من نجاح لفائدة المغاربة[45]. غير أنه يتطرق –على عكس المصادر الأخرى– إلى بعض التراجع الذي شهدته الجبهة المغربية عند بداية المعركة بفعل محاولة الإرهاب الذي عمد إليه البرتغاليون عن طريق الإيهام بضخامة عدد الفرسان، كما أكد على التفوق العددي للبرتغاليين إلى الضعف مرتين بالمقارنة الجيش المغربي الذي أشار إلى أنه كان في حدود ستة وثلاثين ألفا، ثم كيف نجح عبد الملك في لحظات حياته الأخيرة في إعادة اللحمة لصفوف المقاتلين وتحريضهم وتوجيه فرق الجيش من مدفعية وخيالة، حيث أثنى كثيرا على مجهوده في هذه الحرب، واستمرار حاجبه القائد الطايع من بعده في توجيه الأوامر بإسم السلطان رغم وفاته إلى غاية حلول الهزيمة بمن أسماهم ب"**الكفار**"، حيث يؤكد بشكل واضح على دور هذا القائد وعامة الناس المتطوعين في الانتصار، وكذا عمله على جمع الكلمة بعد اكتشاف موت عبد الملك على بيعة أخيه أحمد[46].

ويشير أيضا إلى الكيفية التي تم بها استخراج جثتي المتوكل وسبستيان من الوادي من قبل الغواصين ودفن الأول في موضع معلوم وأمر المنصور بسلخ جلد الثاني وحشوه تبنا وإرساله إلى مراكش والطواف به ليعاينه الناس على تلك الحالة وأخذ العبرة من مصيره وكيف تمت تسميته من يومها ب"**المسلوخ**"، ثم دفنه بعدها هو ومن معه من الرجال الذين وصفهم ب"**عصاة المسلمين**" كإشارة على الصورة الذهنية السلبية لهذا السلطان وأتباعه التي ترسخت بين المغاربة حينها[47]. ويتبع ذلك بما ناله المنصور من ثروات جراء افتداء الآلاف من أسرى وادي المخازن من النبلاء، حيث قام عقب المعركة بعد تداركه للأمر "**بجمع قواد النصارى وأكابرهم من الناس وأكثرهم من عند اليهود...وقبض فيهم...مالا عريضا من الفضة والسلع**"[48].

أما "**الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**" لأحمد الناصري(ت1315هـ/1897م)، والذي جاء متأخرا عن كل هذه المصادر، فقد حاول الجمع ما بين معطيات المصادر المغربية السابقة عنه كالنزهة والمرآة والدرة والمنتقى ومعطيات مصادر أجنبية من قبيل "**الوصف التاريخي للمغرب ولمحة عن دوله**" « Description Histórica de Marruecos y breve resena de sus dinastias » لصاحبه Manuel Pablo Castellanos، وقد كرس فصلا لهذه المعركة تحت عنوان (**الغزوة الكبرى بوادي المخازن من بلاط الهبط والسبب فيها**)، حيت وصف دون سبستيان ب"**طاغية البرتغال**" و"**طاغيتهم الأعظم**"[49]. ونقل عن Manuel Castellanos تفاصيل مكونات هذا الجيش الذي ضم 12 ألف برتغالي و 20 ألف إسباني و6 آلاف ما بين إيطالي وألماني و4 آلاف من جنود البابا و1500 فرسا و12 مدفعا وألف مركب، وكذا تعداد الجيش المغربي الذي أورد أنه تشكل مما يزيد عن 40 ألف و34 مدفعا[50]، وينقل عنه أيضا رواية مغايرة لمقتل عبد الملك الذي أشار إلى أنه مات نتيجة تسميمه من قبل المتوكل بغية استحداث الفتنة في معسكره، كما أوعز هزيمة البرتغاليين لقلة المؤونة مع تأخر المعركة، وصمود وحزم وشجاعة عبد الملك المعتصم وهو على فراش الموت، ومدى مساهمة كتم مسألة موته في النصر، مما أصاب النصارى بالدهشة والفوضى ودفعهم للفرار باتجاه الوادي والهلاك فيه أو الوقوع في الأسر بعد أن اندلعت النيران في البارود خاصتهم [51]. إضافة إلى حديثه عن وفاة الملك البرتغالي تحت أقدام الخيول واستمرار مجده وذكراه بين البرتغاليين في أدبياتهم وأشعارهم لما تركه مقتله في المعركة من أثر في نفوسهم[52]. غير أنه يناقضه حول رواية وفاة عبد الملك المعتصم بتبني طرح أحمد بن القاضي القائل بتسميمه على يد قائد الترك رمضان العلج بتخطيط من الأتراك[53].

وأشار الناصري أيضا إلى الأثر العميق الذي ترسخ في ذاكرة البرتغاليين من مأساة نتيجة هذه الهزيمة التي ترافقت مع فقدان عرشهم وزوال دولتهم وهلاك معظم نبلائهم انطلاقا مما نقله عن مؤرخ إنجليزي، كون هذه الوقعة كانت بالنسبة لهم "**وقعة هائلة ويوما مشؤوما**" أدت إلى مقتل جميع أشرافهم وفراغ كرسي سلطنتهم الذي سيطر عليه ملك إسبانيا فيليب الثاني، كما نقل –في نفس السياق– عن مذكرات Luiz Maria de conto عبارة مهمة تشير إلى عمق الحسرة والإحباط الذي أرخى بظلاله آنذاك على الذهنية البرتغالية: "**وقد كان مخبوءا لنا في مستقبل الأعصار، العصر الذي لو وصفته كما وصفه غيري من المؤرخين لقلت هو العصر النحس، البالغ النحوسة، الذي انتهت فيه مدة الصولة والظفر والنجاح، وانقضت فيه أيام العناية من البرتغال، وانطفأ مصباحهم بين الأجناس، وزال رونقهم، وذهبت النخوة والقوة منهم وخلفها الفشل وانقطع الرجاء واضمحل إبان الغنى والربح، وذلك هو العصر الذي هلك فيه سبستيان في القصر الكبير من بلاد المغرب**"[54].

وضمن صنف الفهارس، نجد مصدرا مهما وهو "**مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن**" الذي تناول بالتفصيل سيرة أحد أكبر علماء وصوفية العهد السعدي وهو يوسف الفاسي الملقب بأبي المحاسن(1530-1604م) مؤسس الزاوية الفاسية، الذي لعب دورا كبيرا في الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية خلال هذه الفترة إلى جانب أفراد أسرته التي أنجبت العديد من العلماء والمشايخ، ومن بينهم ابنه محمد العربي الفاسي(ت1052هـ/1642م) مؤلف هذه الترجمة. ويعد الكتاب على درجة مهمة من الاتزان، بحيث قدم تغطية لمجموعة من المظاهر الذهنية والاجتماعية خلال هذا العهد[55]. وقد ركز هذا المصدر من حيث الغاية من تأليفه على دور أبي المحاسن الفاسي في الحشد للمعركة والمشاركة الشخصية فيها وتثبيت ساكنة المناطق المجاورين لساحة المعركة وكذا المقاتلين ومنه التأكيد على دور المشاركة الشعبية في المعركة[56]، لاسيما وأنه كان أحد أبرز مشايخ القصر الكبير وأكثرهم سمعة بين عامتها حتى أنهم تنازعوا إقامته بينهم وبين أهل فاس[57]، مستعملا في ذلك البشرى بهزيمة النصارى وتحقيق الغنيمة[58].

ويذكر صاحب المصدر هو الآخر –وعلى غير العادة– الانكسار الذي أصاب ميسرة الجيش حتى تزحزح المقاتلون فيه عن صفوفهم وحملت عليهم النصارى لولا ثبات الشيخ أبي المحاسن ومن معه إلى "**أن منح الله المسلمين النصر وركبوا أكتاف عدوهم يقتلون ويأسرون**"، ويضيف إلى جانب مدح شجاعته ورباطة جأشه وثباته وجهاده في المعركة، أنه تنزه عن الغنيمة "**فلم يأخذ منها جليلا ولا حقيرا**"، في وقت انتهبت فيه انتهابا ولم تقسم بسبب الانشغال بموت السلطان المعتصم[59]. وقد وصف المعركة ب"**الغزوة العظمى**"

وموقعها ب"**تامدة من حوز القصر**" سنة 986هـ، ونسب وفاة المعتصم للمرض[60]، وتحدث عن مقتل سبستيان دون تحديد طريقة مقتله، وغرق المتوكل بعد أن وقع في الغدير بوادي المخازن، وأشار كذلك إلى أكثر ما قيل في عدد الجنود البرتغاليين وهو 125 ألفا وأقله وهو 80 ألف[61]، مكررا خلال هذا السرد دعواته على النصارى بعبارة "**دمرهم الله**"[62]، ووصف غرق المتوكل وكيف تحققت غنيمة "**لم يكن قط مثلها بالمغرب**"[63].

وفي نفس هذا السياق نجد كذلك بعض التقاييد أو الكناشات مثل "**مساهمة رباط تازروت في معركة وادي المخازن**"، والتي تتحدث عن دور هذه الزاوية في المعركة، فإلى جانب توسيع وتعظيم الزاوية وإعفائها مع كامل قبيلة بني عروس من الوظائف المخزنية تم منحها أرض المعركة نظير تلك المساهمة[64]، هذه الظهائر التي تم تجديدها خلال عهد المولى إسماعيل اعترافا بمجهوداتها في المعركة[65].

إلى جانب وثائق أخرى كرسالة الشيخ رضوان الجنوي(ت991هـ/1583م) إلى المنصور بعد معركة وادي المخزن، والتي يتحدث فيها عن ما آلت إليه "**من نصر الإسلام وأهله وخذلان الكفر وأهله**"، وعن حالة الأسف والحزن والحرقة والندم التي كان عليها من لم يحضر هذه الغزوة من المغاربة، ويدعو أيضا في هذه الرسالة المنصور لانتهاز الفرصة لاسترجاع طنجة وأصيلا وسبتة استغلالا لما عليه "**الكفار**" من "**دهش وخزي وخذلان**"[66].

3. معركة وادي المخازن في المصادر الأجنبية:

وقد حفظت لنا المصادر الأجنبية كذلك صورا أخرى من ذاكرتنا المحلية المرتبطة بهذه الفترة ولاسيما فيما يتعلق بواقعة وادي المخازن، حيث نجد أن عددا من المصادر الأوربية التي تطرقت للعصر السعدي ذات أهمية كبيرة لما تضمنته من إشارات متنوعة مكملة للمصادر المحلية، رغم ما احتواه عدد منها من مغالطات ذات خلفية دينية وفق ذهنية عامة سادت الحالة الفكرية ما بين الضفتين خلال تلك الفترة، لاسيما على مستوى المصادر، مثل "**تاريخ الشرفاء**" للبرتغالي "دييكو دي طوريس"[67]، والذي أظهر تحامله الكبير على الإسلام والمسلمين عامة، بحكم اهتمامه بالصراع الإسلامي المسيحي، على اعتبار أن العالم المسيحي يقوم بحرب صليبية مشروعة ضد أعداء دينه –المسلمين–، الذين يصفهم بالكفار والمتوحشين، وملوكهم الطغاة والماكرين[68].

وفي نفس الإطار، يدخل كذلك مصدر برتغالي آخر جاء بعده ومكملا له من حيث الفترة الزمنية، وهو "**أخبار أحمد المنصور سلطان المغرب**" لأنطونيو دي صلدانيا، الذي تمكن خلال فمدة إقامته الجبرية

بمراكش ما بين 1592-1609م من جمع مجموعة من المعلومات ومنها كما ذكر "**عوائد أولئك الشعوب وبعض أشكال عيشهم في عهد الشريف المولى أحمد**"[69]. غير أنه أغفل في أحايين كثيرة التركيز المباشر على المظاهر الذهنية الثقافية والدينية، ويعاب عليه –كغيره– عدم حياده تجاه المسلمين الذين يصفهم بالهمجية في مقابل التفوق المسيحي، مع استثناء المسلمين الذين يعاملون المسيحيين معاملة طيبة[70].

ولعل المسألة الأكثر جذبا في هذا الكتاب هو أنه تم تأليفه في إطار موجة أدبيات إحياء استقلال البرتغال الذي كان خلالها خاضعا للعرش الإسباني ما بين 1580-1644م نتيجة الانعكاسات الكارثية لهزيمة وادي المخازن على الوضعين السياسي والفكري في وطنه الأم[71]، وهو ما جعله يصفها ب"**نكبة البرتغال المفجعة**"[72]، و"**المصيبة الكبرى**"[73] و"**النكسة**"[74]. إذ يتحدث عن ذلك بحسرة شديدة وبالغة العمق حينما يقول: "**عبد الملك الذي انتصر على الملك سبستيان، وعلى ما كان يومئذ هو عز البرتغال وعنوان وعظمته، وبناء عليه فلا بد من الرجوع إلى ما قبل ذلك بالقدر الذي يمكن من استحضار تلك الذكريات، فإنني لا أعتزم حكاية ما واكب تلك الهزيمة من الشقاء والمحن**"، محاولا في الآن ذاته –حسب قوله– تصويب الرواية حول هذه المعركة بناء على الحقيقة منتقدا كتابات أخرى حولها من قبيل كتاب "**اتحاد مملكة البرتغال مع مملكة قشتالة**"[75]. إذ وصفها ب"**معركة القصر الكبير التي قتل فيها الملك سبستيان والمتنافسان على العرش المغربي عبد المالك ومحمد**"[76]، وتناول التدابير والإجراءات التي اتخذها عبد الملك المعتصم وأخوه أحمد قبيل المعركة[77]، وأشار كذلك إلى وجود غلام برتغالي يدعى "مامين بربراو" من خدم عبد الملك المعتصم كان يتجسس على مخيمه وينقل أخبار احتضاره لصالح المتوكل وسبستيان، وهو ما جعلهما ينتظران لحظة وفاته لتتسنى لهما فرصة الانقضاض على المعسر المغربي دون جدوى[78]. ثم مبايعة المنصور عقب النصر في المعركة وما تلاه من مفوضات من أجل إقناع السلطان الجديد بالبحث عن جثة الملك البرتغالي التي عثر عليها مشوهة ونقلها من القصر الكبير ومنه إلى سبتة، وما أثارته مسألة مقتل الملك من ريبة لدى النصارى بحكم عدم حضور أي شاهد منهم على الأمر، لتعم الشائعات إثرها حول فراره وبقائه حيا وإمكانية عودته، مع أنه حمل المسؤولية في ذلك للملك نفسه الذي لم يلتزم بمكان معين داخل ساحة المعركة[79]. حيث ظل الجدل بعدها –ولمدة طويلة– قائما حول كون سبستيان على قيد الحياة، وفق ما قال أنه ابتدأ بخديعة من قبطان أصيلا وأحد النبلاء، لتنقلب المسألة إثرها إلى أسطورة ترخي بظلالها على ذهنية البرتغاليين وتجعلهم "**مشدودين إلى ما أصابهم من المصائب**"[80]. كما تحدث في فصول لاحقة عن أسرى المعركة لاسيما من النبلاء وظروف التفاوض حول افتدائهم، وكيف عاش الغلمان البرتغاليون منهم في قصور الدولة السعدية في مراكش[81].

ولعل هذه الأزمة التي خلقها الحدث في الضفة الأخرى هو ما جعل معظم المؤرخين هناك ولاسيما البرتغاليين، يتجاوزون التطرق إليها ويمرون عليها بشكل سطحي أو يشوهون الحقائق أو يدونون شهادتهم بهوية مجهولة، حيت كان السكوت عن المعركة مبررا بالنسبة إليهم نظرا لما مثلثه هذه الهزيمة من انتكاسة بعد ما حققوه من انتصاراته خلال القرن 16م إلى درجة سيادة إحساس بينهم –خاصة وعامة– بأنهم شعب الله المختار، ثم ما تلا ذلك من الوقوع تحت الحكم الإسباني مع وفاة الملك الشاب سبستيان الذي كان تعقد عليه الآمال في استمرار مجد الأمة البرتغالية، وما رأوا في فقدان الاستقلال من إهانة لهذا المجد[82]. وبالتالي محاولة إلقاء اللوم على أطراف أخرى من قبيل رجال الكنيسة الذين تكلفوا بتربية الملك والإعداد للحملة من جهة أو النبلاء والقادة العسكريين من جهة أخرى[83].

ويحضر لدينا هنا مصدر برتغالي مجهول المؤلف معاصر للأحداث والفترة ومشارك في المعركة، وهو "حملة الملك دون سبستيان على إفريقيا Jornada del Rey Dom Sebastiao à Africa"، هذا المصدر الذي يتحدث في البداية عن توقعاته بالهزيمة وفشل الحملة نظرا لاستبداد الملك بالرأي وعدم توفر الهياكل السياسية والإدارية اللازمة لها، وعدم رغبة فئات عريضة من المجتمع البرتغالي المساهمة في هذا المغامرة، وكذا تفشي الفساد والرذائل بين البرتغاليين في محاولة منه لتصوير الهزيمة كعقاب إلهي حتمي[84]. غير أنه قدم لنا صورة مغايرة عن الجانب المغربي، مؤكدا أن المغاربة ما إن علموا بعبور البرتغاليين حتى التفوا حول المعتصم وتقاطروا من جميع الجهات على منطقة الهبط، لأنهم فطنوا أن هذه الحملة "**لا تهدف إلا إلى الاستيلاء على أراضيهم وأسر نسائهم وأبنائهم لذا هبوا للمشاركة في تلك الحرب حتى من المناطق الأشد بعدا بداخل إفريقيا**"، مضيفا سردا دقيقا للاستعدادات التي قام بها سبستيان وكذا من جانب المعتصم سواء لمنع قيام الحملة أو إفشالها وفرقه العسكرية وقواده، كما يشير إلى ما سبق من نجاحات لهذا السلطان في التفوق على المتوكل بسبب ذكائه وخبرته وارتباط المغاربة به وكرههم لابن أخيه، وكذا ظروف بيعة المنصور، والتوفق الديمغرافي للمغاربة الذين شبه تكاثرهم بتكاثر النحل ورغبتهم في الاستشهاد دفاعا عن أرضهم، علاوة على تكوين الجيش المغربي الذي ضم –حسب قوله– 66 ألف فارس و44 ألف من المشاة، و22 قطعة من المدفعية[85]، ولا يغفل أيضا عن وصف تفاصيل المعركة المادية والنفسية وهول اللحظة بقوله: "**إن مشاهدة عظمة الجيشين الإسلامي والمسيحي وعدد الرماح والخيام ولمعان السلاح والضجيج والطلقات وأصوات الجنود تجعل القلوب ترتجف وألوان الوجوه تتغير، وتجعل كل واحد يخاف على مصيره حتى ولو كان فريقه هو الأكثر أمنا**"[86].

ويقدم لنا خلاصة مهمة مفادها أن كثرة أعداد المغاربة واستعدادهم للمواجهة في هذه المعركة هو ما دفع البرتغاليين للتفكير في الانسحاب والعودة إلى النهر ومنه باتجاه العرائش وحدوث الهزيمة، رغم محاولته التغطية عن العامل المغربي فيها بدعوى أن الخطة البرتغالية كانت تستهدف بالأساس السيطرة على ميناء العرائش لا غير، حيث لم يستطع الفرار إلا 40 فردا بينما قتل أو أسر الباقون أو غرقوا[87].

فيما خصص محورا آخرا للحديث عن نتائج المعركة والمتمثلة في خضوع البرتغال لإسبانيا في ظل ضعف المقاومة البرتغالية وإفقار البلاد نتيجة الأموال الباهظة للحملة وما نقله النبلاء معهم أثناءها من نفائس وما تم دفعه لافتدائهم، إلى درجة قوله: "**إن السلب والغنائم المحصل عليها بتلك المعركة يمثل أهم ما تم الحصول عليه بكل معارك العالم المعروفة**"، كما يسلط الضوء على نتائج المعركة بالنسبة للجانب المغربي مع وصول المنصور إلى الحكم وعدم استغلاله الفرصة لاسترجاع الثغور المحتلة من قبل البرتغاليين ولاسيما القريبة من موقع المعركة بدعوى ضعف خبرته العسكرية وعدم استقرار بيعته في ظل وجود منافسين آخرين مثل ابن عبد الملك المعتصم وتخوفه من تدخل إسبانيا... [88].

إضافة إلى مصدر آخر هو "**وصف الممالك المغربية**"، وهو عبارة مذكرات للإسباني ذي الأصل الفلاماني "خورخي دي هنين"، الذي قام بتغطية أحداث أواخر العهد السعدي وأعد من خلال هذا المصدر برنامجا لغزو المغرب وفق المعلومات التي جمعها بناء على خلفية دينية متعصبة [89]، محاولا تفادي أخطاء البرتغاليين في معركة وادي المخازن، حيث حاول تبرير هزيمتهم بعدما كان بإمكانهم –في نظره– الانتصار في المعركة عقب سحق المدفعية المغربية لولا أوامر أحد القادة إلى جنوده بالتراجع، مما أعطى للمغاربة الذين كانون على وشك الانكسار انطباعا بفرار البرتغاليين وحمسهم على مهاجمة أعدائهم الذين دخلوا في حالة من الفوضى والاضطراب صعب معها المقاومة[90]. كما يركز في نفس الإطار على تشكيلة الجيش المغربي الذي أشار إلى أنه ضم 10 آلاف تركيا و8 آلاف أندلسي موريسكي و3 آلاف فارس و6 آلاف آخرين من المغاربة كلهم من حملة البنادق، إلى جانب 40 ألفا من الأعراب المغاربة بالنبال والدروع، وعدد كبير من المشاة من أصحاب السيوف والسهام، مؤكدا أن كل هؤلاء الجنود تلقوا أجورهم مقدما وبسخاء وكانوا في حالة استعداد كامل للمعركة[91].

ومن زاوية مغايرة تقدم لنا "المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc" مجموعة من التقارير والرسائل التي احتوت بين ثناياها إشارات ومعلومات قيمة مرتبطة بالأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية بالمغرب خلال الحكم السعدي. حيث تعرض لنا من خلال

بعض الرسائل وصفا دقيقا مفصلا لعدد وعتاد الجيش البرتغالي، إذ تذكر إحداها –مؤرخة في 18 يوليوز 1578م وموجهة من مدريد إلى أحد الجنرالات الفرنسيين– خروج الملك البرتغالي من قادس باتجاه المغرب بقوة كبيرة في حوالي ألف سفينة ما بين كبيرة وصغيرة و35 ألف مقاتل من دون المغامرين والمتطوعين الذين قدرت أعدادهم بأكثر من 10 الآلاف مقاتل، و70 مدفعا، وما بين 3 و4 آلاف حصان، وأعداد أخرى من البغال والعجول، ومن المؤن ما يكفي لتغذية 60 ألف شخص لمدة 6 أشهر مع سداد أجور كافة الجنود خلال هذه المدة، إلى درجة القول أنه "**كان لديه واحد من أفضل الجيوش التي لم يتم الحديث عن مثلها منذ وقت طويل**"[92].

فيما تذكر وثيقة أخرى إسبانية –تنم عن قرب صاحبها من الأحداث– أن جيش سبستيان حينما انطلق من لشبونة في 25 يونيو 1578م انطلق في 847 سفينة بكل الأنواع حاملا معه 14 ألف رجلا منهم 3000 فارس، مع احتساب 2000 مرتزق و900 إيطالي و3000 ألماني و3000 إسباني و450 من نبلاء أسر كبرى مع مواكبهم، زيادة على فرسان طنجة وأصيلا، غير أنها تؤكد على أن 18 ألفا منهم فقط كانوا جاهزين للقتال وأنهم ذهبوا للحرب من دون رغبتهم وفي حالة من التعاسة[93]، فيما تشير إلى عدم أخذ الملك سبستيان بالتحذيرات التي بلغته عن قوة المغاربة وجيشهم الذي تجاوز تعداده حسب نفس الوثيقة 120000 رجل، منهم 40 ألف فارس، من بينهم 10 الآلاف من حملة البنادق مع توفرهم على 4 آلاف مدفع[94]. هذه المدفعية التي يعود الفضل لها –حسب نفس الوثيقة– في إحداث خسائر فادحة في صفوف المسيحيين ومحاصرة جيشهم بسرعة كبيرة، وما إن مرت نصف ساعة على هذا الانكسار حتى قتل الملك البرتغالي وآخرين كثر ونهب المعسكر البرتغالي وأسر معظم مقاتليه وكذا أغلب النبلاء حتى بلغ مجموع الأسرى 20 ألف رجل، كما تسرد هلاك المتوكل والمعتصم وعدد من قادتهما وإيجاد جثة سبستيان ونقلها للقصر الكبير وابتداء عملية الافتداء مع أول نبيل وهو D. Antonio[95]. بحيث أطلقت الوثيقة على الحدث وصفا تراجيديا هو "**كارثة القصر الكبير**"[96].

ولعل من بين أهم هذه الوثائق التي تقدمها "المصادر غير المنشورة" رسالة الطبيب اليهودي المرافق للسلطان عبد الملك المعتصم إلى أخيه، والتي دونت بالإسبانية بعد فترة وجيزة من تاريخ المعركة في 16 غشت 1578م، والتي يروي فيها بدقة عددا من حيثيات الحدث منذ المسير نحو المعركة ومجرياتها ونتائجها. حيث يثير جدلا حول مقتل الملك البرتغالي سبستيان، إذ يذكر أنه توفي متأثرا بجراح في الرأس والذراع، على عكس ما تشير إليه المصادر المغربية أنه مات غريقا، في حين سقط المتوكل عن فرسه في الوادي وتوفي غرقا[97]،

وأوعز وفاة السلطان السعدي عبد الملك المعتصم للمرض على عكس كل الروايات المتضاربة الأخرى، بحكم أنه كان يعاني من الحمى والمغص قبل المعركة وأنه لم يرغب في اتباع نصائحه مما ساهم في تدهور صحته[98]، وكيف لعب هذا الطبيب دورا مهما في التستر على موته وإظهار أنه لا يزال على قيد الحياة حتى لا ينكسر المعسكر المغربي مخافة سقوط البلاد في يد البرتغاليين الكاثوليك الذي عرف عليهم اضطهاد المسلمين واليهود[99]. إذ صدر الأمر بدفن المعتصم –بداية الأمر بفاس– بلباسه وحذائه ووضعه في قبره على فراشه وجعلت أعلامه عند رأسه، لما تحمله كل هذه الطقوس من دلالات رمزية مرتبطة بالشهادة والخلود والتمجيد نظير دوره البارز في هذا النصر[100].

كما أشار الطبيب المذكور إلى أن عدد النصارى كان 30 ألفا ولم ينج منهم سوى 20 أو 25 من فرسان طنجة الذين فروا باتجاه أصيلا، وقتل منهم أزيد من 15 ألف[101]، رغم أن Fray Luis Nieto قدر عدد قتلى الجيش المسيحي بحوالي 12 ألف[102]، بينما ذكر Franchi Concslaggio مقتل 3000 مغربي ومثلهم أو أكثر من المسيحيين[103].

غير أن إفادة معاصرة أخرى لأحد الإنجليز تبالغ في عدد القتلى المغاربة إذ أوردت مقتل نحو 40 أو 50 ألف مغربي، وتقلل من عدد قتلى المسيحيين وتحصرهم في ثلاثة آلاف ألماني وسبعمائة إيطالي وألفان من الإسبان، كما تشير إفادته إلى أن الجيش المغربي هو من بادر بالهجوم في بداية المعركة على الفرسان البرتغاليين ثم ما لبث أن تراجع بفعل بعض الخسائر، غير أن المعتصم الذي وصفه بمولاي "ملّوك" حسب اللقب العامي المعروف عند المغاربة، ما لبث أن أعاد ترتيب صفوف جنده لخوض المعركة من جديد والتفوق على البرتغاليين الذين أصيبوا بالهلع وتشتت شملهم في ظل ثبات المغاربة الذين أخذوا في قتلهم وأسرهم، فلم ينج منهم إلا نحو 80 أو 100 رجل على الأكثر ممن استطاعوا الفرار من ساحة المعركة، كما فقد البرتغاليون 22 قطعة من المدفعية و700 مركبة وأشياء أخرى عظيمة القيمة، كما يشير إلى وفاة المتوكل الذي أسماه ب"**الشريف الملك الأسود**"[104]. وضخم –على ما يبدو– من عدد جنود الجيش المغربي وفرقة الفرسان ضمنه، التي قال بأنها تضم 70 ألف فارسا إلى جانب 40 ألفا من المشاة، منهم 20 ألفا من الرماة الفرسان و40 ألفا من مشاة المدفعية[105]. كمحاولة منه لتبرير هذه الهزيمة الساحقة.

ويضيف Fray Luis Nieto –ضمن نفس المصادر– أنه بالإضافة إلى عناصر وفرق جيش سبستيان، فقد كان مرفوقا ب 300 سجين وأزيد من ألف سائق عربة وأعداد لا تحصى من الغلمان والأتباع والخدم وكثير من العبيد المغاربة ونساء للخدمة و المتعة[106].

ولا يجب كذلك أن نغفل عن أرشيفات أجنبية أخرى مهمة، ومن ضمنها الأرشيف العثماني الذي لا يزال يزخر بالعديد من الوثائق على هذه الفترة ومنها معركة وادي المخازن، ومنها وثيقة مهمة أوردها الأستاذ عبد الرحيم بنحادة ضمن "هسبريس تمودا" تحت عنوان "**وثيقة عثمانية حول معركة وادي السبيل**"، حيث تستوقفنا لأول وهلة هذه التسمية التركية المختلفة للمعركة وهي "**وادي السبيل**"، والتي يمكن أن ترجع إلى التحريف الصوتي ل"واد ريسانة" أو الأرجح إلى واقعة "قطع الجسور" الذي ترتب عليها سيل الماء حسبما تؤكد المراجع التركية[107]، إذ تشير هذه الوثيقة التي هي عبارة عن حكم صادر إلى حسن باشا بالجزائر يؤمر فيها بتعيين 1500 عسكري و12 أميرا وإرسالهم إلى مناطق الحدود وتجهيز عشرين قطعة بحرية للغزو والجهاد، حيث تشير بدقة إلى حجم المساهمة التركية في المعركة وإلى استعدادات ملك البرتغال للحملة ومساندة البابا ودوق فرنسا له ب 4 أو 5 بوارج محملة بالمحاربين والذخيرة وإسبانيا ب 10 آلاف محارب وستين سفينة للعبور إلى شاطئ المغرب، بالإضافة إلى الإشارة إلى استعدادات وعدد جنود الجانب المغربي وأخذ عبد الملك المعتصم لجميع الاحتياطات، بحيث ذكرت الوثيقة أن "**مولاي عبد الملك فيستعد للحرب وقام بإرسال أخيه مولاي أحمد بصحبة ما يقرب من عشرة آلاف جندي وتوجه هو بصحبة أربعين أو خمسين ألف جندي، واتخذت إجراءات الحيطة...**" [108].

إلى جانب رسالة جوابية من السلطان العثماني مراد الثالث أوردها عبد الرحمان المودن في نفس المجلة تعود إلى مارس 1579م، ردا منه على رسالة أحمد المنصور التي أعقبت نصر وادي المخازن، حيث قدم هذا الأخير نفسه على أنه صاحب الدور الرئيسي فيها وفي التخطيط لها والإشراف عليها، وذلك في محاولة للتقارب مع السلطان العثماني[109].

خاتمة:

في النهاية، نخلص بعد دراسة هذه المصادر إلى اختلاف واضح في الذاكرات والقراءات حول معركة وادي المخازن، خصوصا ما بين الجانب المغربي المنتصر الذي ركزت مصادره على التأريخ لمجد الانتصار فقط، وربطت صورة البرتغاليين المنهزمين بالإذلال والانكسار والتشفي في نكستهم وفق نظرة دينية في الغالب، غافلة بشكل كبير حيثيات وأطوار المعركة، أو وصف الجيوش المتحاربة فيها وأعدادها والفرق المكونة لها على

وجه الدقة، باستثناء بعض الإشارات النادرة التي روت بعض الحقائق، في وقت اختلفت فيه حتى تسميات المعركة وبعض المعطيات فيما بين كتاب المصادر المغربية. فيما ذهبت المصادر البرتغالية والأوربية في معظمها إلى تبرير الهزيمة والتهويل من أعداد المغاربة واستعداداتهم، خلا بعض الإشارات النزيهة التي تناولت بعض معطيات المعركة أو تحدثت عن الآثار الذهنية والنفسية أو السياسية لهذه الهزيمة. باستثناء بعض الوثائق التي حافظت على هامش مهم من الحياد وكانت أقرب بكثير من الصورة الحقيقية لوقائع المعركة، وهي التي يمكن أن تشكل ذخيرة مهمة للمؤرخ في فهم الحدث والانطلاق منها لوضع تصور مناسب حوله.

وبناء على ذلك، فمن أجل الحفاظ على ذاكرة وتاريخ معركة وادي المخازن الخالدة في مسار المقاومة المغربية للغزو الأجنبي، فنحن لا نزال بحاجة لسبر أغوار مجموعة من النصوص والوثائق الأخرى التي لا تزال رهينة الخزانات الخاصة على المستوى المحلي، أو ما يحتاج منها للتحقيق والخروج لجمهور الباحثين، علاوة على ما يمكن الاستفادة منه من الأرشيفات الأجنبية التي تمتلك رصيدا مهما من الوثائق التي يمكن أن تهم ذاكرة هذه المعركة والفترة التارخية برمتها، ومن أهمها مخطوطات الخزانة الزيدانية التي تعود للأمير السعدي زيدان بن المنصور والتي استولى عليها قراصنة إسبان في البحر سنة 1612م والموجودة حاليا بخزانة الإسكوريال بإسبانيا، والتي تضم إلى جانب كتب هذا الأمير ووالده أحمد المنصور الذهبي كتبا لأخويه الأميرين الشيخ المأمون وأبي فارس، حيث استطاع المغرب الحصول على نسخة منها سنة 2013. زيادة على الجهود التي بذلتها مجموعة من المؤسسات لجلب ملايين الوثائق من الأرشيفات الفرنسية والإسبانية والروسية، وكذا التركية التي لاتزال تزخر بمعطيات مهمة عن معركة وادي مخازن وأوضاع المغرب وترابطاته المتوسطية.

الهوامش:

[1]- محمد حبيدة، **بؤس التاريخ: مراجعات ومقاربات**، دار الأمان، الرباط، 2016، ص. 153.

[2]- ياسين اليحياوي، "الذاكرة الجمعية موضوعا للبحث التاريخي"، **مجلة أسطور**، العدد 7 – يناير 2018، ص. 113.

[3]- محمد حبيدة، **بؤس التاريخ: مراجعات ومقاربات**، م.س، ص. 156.

[4]- نفسه، ص. 160.

[5]- عبد الحق المريني، "أصداء معركة وادي المخازن في الشعر المغربي"، مجلة **المناهل**، العدد 53- السنة 1996، ص. 5-19.

[6]- ليفي بروفنصال، **مؤرخو الشرفاء**، تعريب عبد القادر الخلادي، سلسلة التاريخ رقم 5، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977، ص. 80.

[7]- عبد العزيز الفشتالي، **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا**، دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، الرباط، 1972، ص. 5.

[8]- نفسه، ص. 38.

[9]- نفسه، ص. 26، 40.

[10]- نفسه، ص. 25.

[11]- نفسه، ص. 38.

[12]- نفسه، ص. 38-39.

[13]- نفسه، ص. 48.

[14]- نفسه، ص. 39.

[15]- نفسه، ص. 48.

[16]- نفسه، ص. 49-50.

[17]- نفسه، ص. 39.

[18]- نفسه، ص. 3.

[19]- نفسه، ص. 110.

[20]- أحمد بن القاضي، **المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور**، ج 1، دراسة وتحقيق محمد مرزوق، مكتبة المعارف، الرباط، 1986، ص. 48، 85.

[21]- نفسه، ص. 137.

[22]- نفسه، ص.244-245 .

[23]- نفسه، ص. 245 .

[24]- نفسه، ص. 246.

[25]- نفسه، ص.244.

[26]- أحمد بن القاضي، **درة الحجال في أسماء الرجال**، ج 2، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، 1971، ص. 224 .

[27]- نفسه، ص. 225 .

[28]- محمد الصغير الإفراني، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، تحقيق وتقديم عبد اللطيف الشاذلي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1998، ص. 139-140

[29]- نفسه، ص. 128.

[30]- نفسه، ص. 139.

[31]- نفسه، ص. 128-138.

[32]- نفسه، ص. 128.

[33]- نفسه، ص. 139.

[34]- نفسه، ص. 139-143.

[35]- نفسه، ص. 117.

[36]- نفسه، ص. 143.

[37]- نفسه، ص. 144.

[38]- نفسه، ص. 140.

[39]- نفسه، ص. 142-143.

[40]- نفسه، ص. 141.

[41]- نفسه، ص. 174.

[42]- نفسه، ص. 104.

[43]- مؤرخ مجهول، **تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية**، تقديم وتحقيق عبد الرحيم بنحادة، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، 1994، ص. 8.

[44]- نفسه، ص. 58.

[45]- نفسه، ص. 59-60.

[46]- نفسه، ص. 61-62.

[47]- نفسه، ص. 64.

[48]- نفسه، ص. 65.

[49]- أحمد الناصري، **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج 5، تحقيق وتعليق أحمد الناصري، منشورات وزارة الثقافة والإتصال، الرباط، 2001، ص. 75.

[50]- نفسه، ص. 85-86.

[51]- نفسه، ص. 86-87.

[52]- نفسه، ص. 88.

[53]- نفسه، ص. 90.

[54]- نفسه، ص. 89.

[55]- نفسه، ص. 9-10.

[56]- محمد العربي الفاسي، **مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن**، تحقيق محمد حمزة الكتاني، دار إبن حزم، بيروت، 2008، ص. 102، 147.

[57]- نفسه، ص. 104-105.

[58]- نفسه، ص. 147.

[59]- نفسه، ص. 102.

[60]- نفسه، ص. 101-102.

[61]- نفسه، ص. 146.

[62]- نفسه، ص. 101-102، 147.

[63]- نفسه، ص. 147.

[64]- محمد عزوز حكيم، **مساهمة رباط تازروت في معركة وادي المخازن**، مطبعة الساحل، الرباط، 1989، ص. 84-86.

[65]- نفسه، ص. 87.

[66]- شوقي أبو خليل، **وادي المخازن:معركة الملوك الثلاثة–القصر الكبير**، دار الفكر، دمشق، 1993، ص. 80-82.

[67]- كان مكلفا بافتداء الأسرى المسيحيين بالمغرب، حيث مكث أزيد من 30 سنة معايشا لأهم أحداث الدولة السعدية إلى حدود سنة 1577م، دييكو دي طوريس، **تاريخ الشرفاء**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الدار البيضاء، 1988، ص. 5.

[68]- أنطونيو دي صالدانيا، **أخبار أحمد المنصور سلطان المغرب**، تقديم وترجمة وتحقيق إبراهيم بوطالب وعثمان المنصوري ولطفي بوشنتوف، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 2011، ص. 6.

[69]- نفسه، ص. 14-15.

[70]- نفسه، ص. 14.

[71]- نفسه، ص. 11.

[72]- نفسه، ص. 27.

[73]- نفسه، ص. 34.

[74]- نفسه، ص. 34.

[75]- نفسه، ص. 22.

[76]- نفسه، ص. 25.

[77]- نفسه، ص. 27.

[78]- نفسه، ص. 33.

[79]- نفسه، ص. 30-31.

[80]- نفسه، ص. 35.

[81]- نفسه، ص. 40.

[82]- أحمد بوشرب، "معركة وادي المخازن من خلال كتاب حملة الملك دون سبستيان على إفريقيا لمؤلف برتغالي مجهول"، مجلة **المناهل**، العدد 28- السنة العاشرة دجنبر1983، ص. 116-117.

[83]- نفسه، ص. 118.

[84]- نفسه، ص. 120-121.

[85]- نفسه، ص. 122-124.

[86]- نفسه، ص. 125.

[87]- نفسه، ص. 125-126.

[88]- نفسه، ص. 127-128.

[89]- خورخي دي هنين، **وصف الممالك المغربية 1603-1613م**، ترجمة عبد الواحد أكمير، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 1997، ص. 25.

[90]- نفسه، ص. 183.

[91]- نفسه، ص. 182.

[92]- Henry DE CASTRIES, **Les Sources Inédites de l'histoire du Maroc, 1ère série - Dynastie Saadienne, Archives et bibliothèques d'Angleterre**, Tome I, Ernest Leroux, Paris, 1918, p. 300-301.

[93]- Chantal DE LA VERONNE**, Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc, 1ère série -Dynastie Saadienne, Archives et bibliothèques d'Espagne**, Tome III, Paul Geuthner, Paris, 1961, p. 474.

[94]- Ibid, p. 475.

[95]- Ibid, p. 475-476.

[96]- Ibid, p. 475.

[97]- Henry DE CASTRIES, **Les sources Inédites, 1ère Série, Archives d'Angleterre**, op. cit., p. 319.

[98]- Ibid, p. 313-314.

[99]- Ibid,, p. 317-318.

[100]- Ibid, p. 320.

[101]- Ibid, p. 318-319.

[102]- Henry DE CASTRIES, **Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc, 1ère Série - Dynastie Saadienne, Archives et bibliothèques de France**, Tome I, Ernest Leroux Editeur, Paris, 1905, p. 497.

[103]- Henry DE CASTRIES, **Les sources Inédites, 1ère Série, Archives d'Angleterre**, op. cit., p. 567.

[104]- عبد الهادي التازي، **التاريخ الدبلوماسي للمغرب**، ج 8، مطابع فضالة، المحمدية، 1988، ص. 107.

[105]- شوقي أبو خليل، **وادي المخازن**، م.س، ص. 111.

[106]- Henry DE CASTRIES, **Les Sources Inédites, 1ère Série, Archives de France**, op. cit., p. 474-475.

[107]- عبد الرحيم بنحادة، "وثيقة عثمانية حول معركة وادي السبيل"، **هيسبريس تمودا**، العدد 31-السنة 1993، ص 26.

[108]- نفسه، ص 31.

[109] -Abderrahmane EL MOUDDEN, «Qui a dirigé la bataille de Wad Al-Makhazin?(Présentation d'un document ottomano-sa'di inédit)», **HESPERIS TAMUDA**, Vol. XXIX - Fasc.2, 1991, p. 183-185.

قائمة المراجع:

- أحمد بن القاضي:

- **المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور**، ج 1، دراسة وتحقيق محمد مرزوق، مكتبة المعارف، (الرباط: 1986).
- **درة الحجال في أسماء الرجال**، ج 2، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، (القاهرة: 1971).

- أحمد بوشرب، "معركة وادي المخازن من خلال كتاب حملة الملك دون سبستيان على إفريقيا لمؤلف برتغالي مجهول"، **مجلة المناهل**، العدد 28- السنة العاشرة، دجنبر1983.

- أحمد الناصري، **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج 5، تحقيق وتعليق أحمد الناصري، منشورات وزارة الثقافة والإتصال، (الرباط: 2001).

- أنطونيو دي صالدانيا، **أخبار أحمد المنصور سلطان المغرب**، تقديم وترجمة وتحقيق إبراهيم بوطالب وعثمان المنصوري ولطفي بوشنتوف، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، (الرباط: 2011).

- دييكو دي طوريس، **تاريخ الشرفاء**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، (الدار البيضاء: 1988).

- شوقي أبو خليل، **وادي المخازن:معركة الملوك الثلاثة-القصر الكبير**، دار الفكر، (دمشق: 1993).

- عبد الحق المريني، "أصداء معركة وادي المخازن في الشعر المغربي"، **مجلة المناهل**، العدد 5، 1996.
- عبد الرحيم بنحادة، "وثيقة عثمانية حول معركة وادي السبيل"، **هيسبريس تمودا**، العدد 31، 1993.
- عبد العزيز الفشتالي، **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا**، دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، (الرباط: 1972).
- عبد الهادي التازي، **التاريخ الدبلوماسي للمغرب**، ج 8، مطابع فضالة، (المحمدية: 1988).
- ليفي بروفنصال، **مؤرخو الشرفاء**، تعريب عبد القادر الخلادي، سلسلة التاريخ رقم 5، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، (الرباط: 1977).
- مؤرخ مجهول، **تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية**، تقديم وتحقيق عبد الرحيم بنحادة، دار تينمل للطباعة والنشر، (مراكش: 1994).
- محمد حبيدة، **بؤس التاريخ: مراجعات ومقاربات**، دار الأمان، (الرباط: 2016).
- محمد الصغير الإفراني، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، تحقيق وتقديم عبد اللطيف الشاذلي، مطبعة النجاح الجديدة، (الدار البيضاء: 1998).
- محمد العربي الفاسي، **مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن**، تحقيق محمد حمزة الكتاني، دار إبن حزم، (بيروت: 2008).
- محمد عزوز حكيم، **مساهمة رباط تازروت في معركة وادي المخازن**، مطبعة الساحل، (الرباط: 1989).
- ياسين اليحياوي، "الذاكرة الجمعية موضوعا للبحث التاريخي"، **مجلة أسطور**، العدد 7 – يناير 2018.

- Abderrahmane EL MOUDDEN, «Qui a dirigé la bataille de Wad Al-Makhazin?(Présentation d'un document ottomano-sa'di inédit)», **HESPERIS TAMUDA**, Vol. XXIX - Fasc.2, 1991.
- Chantal DE LA VERONNE, **Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc, 1ère série- Dynastie Saadienne, Archives et bibliothèques d'Espagne**, Tome III, Paul Geuthner, Paris, 1961.
- Henry DE CASTRIES, **Les Sources Inédites de l'histoire du Maroc, 1ère série - Dynastie Saadienne, Archives et bibliothèques d'Angleterre**, Tome I, Ernest Leroux, Paris, 1918.

- Henry DE CASTRIES, **Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc, 1ère Série - Dynastie Saadienne, Archives et bibliothèques de France**, Tome I, Ernest Leroux Editeur, Paris, 1905.